كيف تتحمل الألم

« صابرين في الضيق »

(رومية ١٢:١٢)

القاها : دكتور ف . ب . ماير

(8 April 1847 – 28 March 1929)

هذا الكاتب والواعظ الممسوس القلم واللسان بجمرة مقدسة سماوية ، الهاديء كنسيم صبح الربيع ، العميق كالاوقيانوس ، الذي انتشرت كتبه في كل أنحاء العالم وترجمت الى عدد كثير من اللغات ، الذي قيل عنه انه لو سلك سبيلا آخر لاصبح رئيس اساقفة ، لكنه عاش متواضعا ، خادما أمينا لسيده لا يهتم بالتبجيل والاكرام اللذين يخلعهما عليه الناس . بل يقول عن نفسه :« ما انا الا رجل عادى ، ليس له مواهب خاصة وما أنا بالخطيب ولا بالمعلم ولا المفكر المتعمق . بل ان كان هناك شيء عملته للمسيح ولجيلى فهو لأني أعطيت نفسى بجملتها للمسيح يسوع : ثم بذلت جهدي أن افعل ما كان يريد أن أفعل »

ولد يوم 8 أبريل سنة 1847، وارتحل يوم ٢٨ مارسن سنة ١٩٢٩ و هوا اليوم الذي دونه في مفكرته قبل أن يعتريه المرض ليسافر في رحلة أخرى الى كندا و كاليفورنيا . فيوم الرحلة كان صحيحا ، أما الجهة فأخطأ فيها ، لأن الله قصد أن
يأخذه إلى رحلة أمجد ، الى حضرته . اثنتان وثمانون سنة قضاها هنا مملوء من الايمان والأعمال الصالحة . وما بين أول صلاة صلاها وآخر شهادة نطق بها سبع وسبعون سنة . وست وستون سنة ما بين بداية خدمته ونهايتها.

قد تكون مجتازا في لجة من الأحزان ، وعلى حين غرة خابت آمالك في المحبة التي ركنت إلى ظلالها . والقلوب التي كانت ترعاك بحدبها جفت مياهها وصارت كمخاضة في صحراء ، وبعد أن كانت سيلا متدفقا أصبحت جدولا متعرجا ، ثم بركة ضحلة ، فلم تلبث أن نضب معينها . وها أنت تنتظر أن تسمع

النبرات التي كانت تتردد في مسامعك يوما ما ، وتتحرق شوقا أن تتسلم الرد الذي جاوز حدود الابطاء ، وعبثا تفتش على ما ادخرت لحياتك . تلتفت لعلك ترى من يمد اليك يد المعونة من الذين أعنتهم فلا ترى أحدا . وأصبح لزاما عليك أن تهجر العش الدافئ حيث كنت تلجأ من زوابع الحياة ، وصرت تهيم منفردا في عالم لا صديق لك فيه . او دعيت فجأة لتحمل أعباء كان يحملها شخص آخر أو قد دخلت مياه بحر متلاطم ولم ترس سفينتك على بر الأمان . أو قد خانتك الصحة فاختل البصر أو ثقل السمع وصرت تحمل في نفسك حكم الموت أو صرت تحدق النظر الى المستقبل الغامض بلا طائل فلا يزيدك التطلع الا مرارة وعذابا ، أو قد يكون الجرح مؤلما في تجربة حديثة العهد ، حتى صار كثغرة في مدخل غابة كثيفة هوت عليها فؤوس الحطابين فقطعتها.

في أوقات كهذه تصبح الحياة ثقيلة الأعباء فترى نفسك متسائلا : « هل قدر للأيام أن تكون طويلة ثقيلة هكذا ؟ أفلا تسرع الساعات البطيئة وتقدم خطاها قليلا ؟ أو هل تعود الحياة متسربله في جلبابها الجميل سيرتها الأولى وقد مزقته يد الخريف ؟ أو هل الله رحمته، أو في غضبه أغلق مراحمه ؟ أو هل امتنعت رأفته؟».

هذا السبيل طرقته ارجل الألوف قبلك . فكر في يد التخريب التي أعملتها الحروب الطاحنة في كل صقع ، وتصور التجريدات التي فعلها أمثال النماردة والنباصرة والتيمورلنكيين ومن هم على غرار نابوليون والطغاة الذين دوخوا الأمصار ، ثم أعد نظرك إلى تجارة الرقيق التي أذلت بلدان أفريقيا ، ثم تواريخ الاستبداد والأذى الذى نكلوا به الضعفاء والعزل ، والقسوة التي لاقاها البائسون على ايدي الجبابرة في العصور المختلفة ، والتشريد في النساء والأطفال ، وعندئذ تنكشف لك الأحزان المرة التي جاز فيها السواد الأعظم من بني جنسنا ، فيتمزق قلبك حزنا .

أن يسوع ذاته داس هذا الطريق الوعر فترك آثار الدم على أسنان الصوان . كذلك الأنبياء والرسل والشهداء والقديسون ، جازوا نفس الطريق . فمما يبعث العزاء في النفس علمك أنك لست وحيدا في هذا الطريق وان لك صحبة بررة تقدموك عبر الوادي المظلم . بل أن الجيش العظيم الواقف قدام الحمل وسعف النخل في أيديهم انما جاءوا من الضيقة العظيمة . فحيثما كانوا هم نحن موجودون الآن ، وحيثما هم الآن بنعمة الله سنكون فيما بعد .

أن الحزن بوتقة تمحصنا . قد تحل بنا الأحزان فنعتبرها نتيجة لقسوة ارتكبها آخر أو في ظروف لا دخل للمتألم في مجرى سيرها ، أو جاءت نتيجة مباشرة لساعة مظلمة من نبات الماضي البعيد .اجل ، ما دام الله سمح بها فينبغي أن نقبلها كأمر معين من لدنه . ان الالام تمحصنا محص النار للمعادن . كثيرا ما نظن أننا لله بالتمام ، لا تظهر لنا حقيقة حالنا والزغل الذي فينا الا اذا دخلنا نار التجارب المطهرة ، حينئذ تصير حالنا حال أيوب فنصرخ : ما أقل ما فينا من صبر حقيقى وما أتفه ما فينا من تسليم واتكال.

لا شيء يفصلنا عن الحياة العالمية ومحبة الذات والرفرفة بأجنحتنا حول الشهوات الأرضية الا الألم . ولا يوجد سبيل به نلجم القوة الجسدية حتى تظهر حياة يسوع في جسادنا المائت الا هذا السبيل . الا أن التهذيب بواسطة الألم اداة يحتفظ بها الله في ايده هو : قال المسيح :« أبي هو الكرام »، فسكين التنقية، في يده ، وعينه تلاحظ البوتقة . واللمسة التي تسري بالحنان هي التي تجس النبض أثناء العملية . فلا يمكن للشيطان أن يهاجمنا بالتجربة الا بعد سماح منه . حالنا كحال ايوب بالتمام .حتى الدقائق التي نبقاها في زمن الألم معدودة عنده بحساب . وقسوة التجربة مرتبة تحت سلطانه وهو مجهز الاحتياطي الكافي

من نعمة الإحتمال ، حتى أن كنا لا نعلم لكن يكفينا أنه موجود رهن الحاجة اليه . ذلك الأمين الذي لا يدعنا نجرب فوق ما نستطيع أن نحتمل ، لا يرضى بخسارة شخص كلفه دم ابنه.

اننا في أحزاننا نشعر بقرب المعزى ، « عونا في الضيقات وجد شديدا ». نعم ، لأنه يجلس بجانب البوتقة و كنار الممحص يباشر بنفسه درجة حرارتها فيزيدها وينقصها بميزان تبعا لحالة التمحيص، فاذا ما شاهد الزغل طفا على السطح وغاب عن الأنظار حتى يرى صورة وجهه واضحا في المعدن المذاب كما لو في مراة حينئذ تنتهي العملية . لا يوجد صديق واحد من اصدقائك في الأرض يستطيع أن يدوس المعصرة معك . لكنك حين تفتح عينك ترى الخل الأوحد، يسوع الصديق الألزق من الأخ، الذي رشت ثيابه بعصير عنب أحزانك . فليكن شعارك الذي تردده دائما برغم دعاوى الشيطان انك متروك وحدك : « انت معي ». أو ردد هذا الاسم مجردا : « يسوع , يسوع) ». فتشعر بقوة تفيض في كيانك.

كثيرا ما يقترح الأصدقاء بأن الزمن هو عامل مهم لتضميد جروح الم الحزن ، كأنهم يقولون أن أنجع دواء هو الترك والنسيان. أو ربما يقترحون بحسن نية أن تسافر لقضاء فسحة وهذا يسليك . لكن عندي أنهم لا يقيمون وزنا لليل الحالك الذي خيم على نفسك . هناك تلتفت اليهم بقلبك المتعب وتقول ما قال ايوب : « معزون متعبون كلكم . لكن الحبيب اقرب الى قلبك ويفهم أحزانك من كل واحد هو يحس بوخزات الملك ، ويشعر بذات شعورك ، ويسكت في محبته، سكوتا أبلغ من الكلام . منتظرا أن يعزى من ساعة الى ساعة كما تعزي الأم ابنها المتألم.

وحينما تتقن درس التعزية السماوية تستطيع أن تعزى من هم في كل ضيقة بالتعزية التي لك من الله (٢ كو 4:1). لا أشك في أن الله أحيانا كثيرة يسمح لنا ببعض التجارب على مثال تجارب سيدنا ، لا لسبب الا أن نقدم المعونة ونظهر العطف للآخرين . فعلينا اذن أن ننتبه لكل أغراض الألم ونتتبع كل وصفة يصفها لنا الطبيب السماوى ، لأننا سندعي يوما ما لخدمة من يجتازون مثل هذه الاختبارات ، لأننا فيما نتألم نقدر أن نعين غيرنا ، وأيضا بالآلام نكمل فنستطيع أن نبذل المعونة الصادقة لمن هم في الآلام.

لا تحبس نفسك في قفص احزانك . كتب الى صديق في خدمة الرب عقب صدمة عنيفة وهي فراق عزيز لديه ، أنه مضطران يهجر الخدمة مع أنها كانت موضوع سروره في البداية . ونحن كثيرا ما نشعر هذا الشعور عقب التجارب المؤلمة ، فتميل الى العزلة والانفراد بعيدا عن الناس والتزام الصمت . لكن نصيحتي الا تدع لهذه الأمور سبيلا الى قلبك . حطم السلاسل الثلجية الواقفة في طريقك . وقم ادهن راسك ، واغسل وجهك ، واخرج الى واجبك بخطوات ثابتة ، ولو أنها في طريق التأديب . وعندي أن الحزن يكاد يكون نوعا من أنواع الأنانية ، لأن النفس التي تدأب على الانشغال بحزنها ولا تريد أن تتعزى تصبح بالتأكيد كالبحر الميت الملآن من الملح الأجاج لا تحلق عليه الطيور ولا تنبت على ضفافه اية خضرة .. اذن الأنانية في أي وضع أو حركة مهما كان الدافع أمر مؤذ وتحجز محبة الله ومعونته لنا وهذا يفقدنا قيمة الدروس التي يعلمنا اياها الله . بيد أن الله يشهر حربا عوانا ضد حياة الذات ، ونحن كثيرا ما نعرقل مسعاه نحونا ونستخلص السم من هبات النعمة كما يستخلص الناس الأفيون والكحول من النباتات البريئة.

تروي الأساطير الشرقية أن امرأة هندوسية فقدت ابنها الوحيد ومن فرط حزنها ذهبت الى النبي الهندوسي تطلب منه أن يعيد اليها ابنها . فتفرس النبي فيها طويلا ثم اجابها بحنان : « اذهبى يا ابنتي واحضرى لي

حفنة من الأرز من منزل لم تمتد اليه يد الموت ، وبعد ذلك ارجعي الى فأرد لك ابنك ». فقامت المرأة من فورها تسـعى وتبحث . جالت هنا وهناك ، فكانت تطلب حفنة الأرز أولا ثم تسـال أهل البيت : « هل جميعكم موجودون ؟ اليس فيكم من غائب ؟ . «فكان الرد بالنفي وعلائم الحزن تبدو عليهم فلما بعد بها الاغتراب ولم تفلح في الحصول على مطلب النبي ، تروي الأسطورة أن فيض حزنها تناقص رويدا رويدا ، ولكثرة مشاهدتها أحزان الآخرين لم يعد قلبها ينشغل بحزن نفسها ، وتحولت آلامها الشخصية حنوا وعطفا على بؤس الآخرين ، وتحولت دموع حزنها لفقد ولدها دموعا تجري على المتألمين نظيرها ، ونسيت نفسها في غيرها ، ووجدت فداء لنفسها في فداء غيرها.

لا تؤنب نفسك توبيخا اذا ما احسست بعاطفة الحنان لأن الدموع طبيعية في الإنسان ، ويسوع نفسه بكى . ان الزوبعة الرعدية التي يعقبها هطول المطر خطرة ، لكن رذاذ المطر المتساقط يلطف الحو ويجعله معتدلا. والجداول الفائضة تنمو بذوبان الثلوج فوق الجبل وتبشير بطلائع الربيع المشرق . ولقد قال المسيح : « يا بنات أورشليم ابكين على انفسكن وعلى أولادكن ». فكونك تحمل حزنك بعين جافة و قلب قاس يدخلك في عداد اتباع الفلسفة الرواقية ، وهذا لا يليق بمسيحى . اذن لا حاجة بنا أن ننحو باللائمة على الطبيعة اذا كانت تنتحب داعية زميلا مفقودا ، أو تبكى بهجة مفقودة ، أو تحزن للمسة حنان كانت توضع على رأسها المحمومة ، أو تصفي علها تسمع صوتا كف عن الكلام ، أو تتألم لذكريات العطف ، ولكن على شرط أن تكون الارادة مسلمة . وهذا هو أول اعتبار يجب أن يلاحظه من هم في الم ، لأن الله نفسه لا يستطيع أن يعزى ارادة جامحة . أما اذا صحب الألم التسليم لمن يقضي بعدل ، فهناك الدرب المؤدي من ظل الموت الى رحب المائدة الملكية والكأس الفائضة.

لكن أرى بعضهم يعترض :« أن الأمر اسوأ من أن احتمل ، فأنى لى بالتسليم في ضيق خانق لا قبل لي باحتماله ؟». فجوابى على ذلك : يحتمل أنك لا تشعر بتسليم ، ولكن عليك أن ترضي أن تكون مسلما ، وهذه هي أول مرحلة في طريق التعزية . والرب يسوع بين لنا في بستان جثسيمانى كيف نتحمل الألم . فكانت ارادة الأب اختياره . ومع أن يهوذا كان مسخرا من الشيطان لمزج المرارة في الكأس المقدمة الى شفتي المخلص ، لكنه كان يرى من وراء ذلك الآب الذي سمح له بهذا الطريق الوعر فقال : « الكأس التي اعطاني الآب الا أشربها !». وقال : « ان اردت أن تجيز عني هذه الكأس ، ولكن لتكن ارادتك لا إرادتي »

فنصيحتي إلى المتألمين الذين يقرأون هذه السطور أن ينفردوا هناك الى عرش النعمة ويقولوا ذات الكلمات : «لتكن ارادتك لا ارادتى » . لتكن ارادتك كما في سماء مقاصدك كذلك على ارض حياتى . ها أنا لا اختار الا ارادتك يا سيدى : قل هذا بفكرك واختيارك ، ليس لأنك تستطيع أن تشعر به ، بل لأنك تريده . ليس لان طريق الصليب مبهج ، بل لانه صواب . كرر ذلك كلما لاطمتك أمواج الألم ، وكلما أحسست بوجع في جرحك الذي لم يندمل . قل لتكن ارادتك لا ارادتى . هيا تجاسر أن تقول لله في كل ظروفك : « أحمدك لأنه هكذا صارت المسرة أمامك ». حينئذ تصل الى اليقين بأن الكل خير . وهنالك تشعر بهدوء يخيم على قلبك الذي عصفت به التجارب . وتحس سلاما يفوق كل عقل يملك على كيانك ، وتختبر راحة لا قبل للوصف بها ، راحة ليست مجرد تنصل من الألم بل تسير وسطه كما سار الفتية الثلاثة في اتون النار ، ولم تكن جمرات النار الحامية لهم قطرات ندي بللت الزهور اليانعة.

جاء الطبيب مرة ينبئني بأن ابنتنا الصغيرة في النزاعات الاخيرة فاجأني الخبر ، فأحسست مرارة الألم بادئ ذي بدء لكن بعد لحظة تراءى لي أن قبضة حنان الأبوة عليها بدأت تفلت ، وبعدئذ خالجني الشعور بأنها أول كل شيء ليست ملكي انا بل هي وديعة الله اردها اليه في أي وقت أراد.

فلا تنس الدروس التي يلقنك الله اياها . لأن كل حزن يحمل في طياته بذرة الحق المقدس ، فان أخذتها وزرعتها في تربة قلبك لا شك أنها تأتي بالثمر المطلوب . وكل ضربة بالأزميل في يد الله وراءها قصد سام ، وكل جرح بالسكين الحادة وراءه تطعيم نبت صالح الثمر.

في آلام الحياة وأحزانها ، يلمس الله الأوتار المنخفضة فتنسجم الأنشودة ، ويصارع الفضائل فينا فيشتد ساعدها ، ويسيرنا في طريق موحش ليفتح لنا كنوز الظلمة ، و يأخذنا الى العراء ليرينا تألق كواكب الوعد ، ويبللنا بالمطر الذارف كى يرينا قوس قزح الرجاء ويدخلنا في حلكة الليل البهيم حتى يفيض علينا نور العهد الباهر.

وهنا نتساءل : أية قيمة للسجايا اذا تجردت من العاطفة ، والتسليم ، والصبر ، والاتكال ، والرجاء الذي يمسك بغير المنظور كمرساة ؟ ان هذه النعم لا تحصل عليها الا من طريق الألم وحده ، لأن الحزن حديقة اشجارها تطرح ثمار البر ، والألم منجم احجار كريمة تألقت اسواره بلمعان أكرم الجواهر . فحذار من أن تسرع برجليك في طريق النور دون أن تكتحل عيناك بالنظر في عينيه . ان الحزن مدرسة أرسلت اليها لتجلس على مقاعدها القاسية لتتعلم من حروفها السوداء الدروس التي تحكمك الى الابد ، فلا تستهن بالفرص التي تنتظرك للتخرج

انظر الى النهاية . واعلم أن الله لا يريد أن يسبب لنا الحزن دائما . انه يقطع اخاديد الأرض السوداء ويقلب بطنها لكي تأتي بالثمر الثمين. ثق انه في ايام الحزن يزرع نورا للصديقين و فرحا للمستقيمى القلوب فتطلع الى يوم الحصاد وانظر الى السرور الموضوع أمامك، فتعزف أوتار قلبك بنشيد الصبر الذي له عمل تام . ستحيا متى تعرف حكمة الله في الطريق الذي تسير فيه الآن . وستتيقن في يوم ما أن الأمر الذي كنت تتوق للحصول عليه ما هو الا أمر ثانوي بجانب ما سمح الله لك وستتعجب حينما يرجع الى ذاكرتك أنه في يوم ما كاد قلبك ينفطر حزنا على ضالة لم تصل اليها ، وكان جريك وراءها كجرى طفل وراء فراشة أو فقاعة . في يوم ستلاقي حبيبك مرة أخرى ، وتجتمع بصديقك المحبوب ، وسيستولى عليك عمق اخلاق ، وعرض عطف ، وكنز صبر، و قوة ادراك لمعاونة الآخرين ، حينما تسلم كل شيء تحت قدمى مخلصك، وستبتهج بأنك كنت مجتازا طريق الألم . سترى الخريطة المفصلة لمشروع قصد الله ، وستحصد في أوانه ، وترى وجهه ، وتكتفي برؤياه . اعلم أن لكل جرح جوهرته ، ولكل جثة قفير نحلها و قرص عسلها ، ولكل عدو ما كان لجدعون من مديان من أسلاب وغنائم.

فطريق الصليب هو السكة الوحيدة المؤدية الى النور الأبدي .والطريق المار بجثسيمانى صاعدا إلى الجلجثة هو الموصل الى رؤى صبح القيامة وأمجاد جبل الصعود فاذا لم نشرب من الكأس التي يشربها

ونصطبغ بالصبغة التي يصطبغ هو بها ونكمل نقائص شدائده فلا انتظار لنا لمشاركته أفراح مجده وبهجة نصـــرته . كم من أناس أغنوا العالم بألمهم . فموت (هالام) أوحى الى (تنيســـون) الشـــاعر الإنجليزي المسيحي بالقصيدة الرائعة (للذكرى) . وسحابة المرض العقلي التي خيمت على (كوبر) اوحت بالترنيمة المشـهورة « الله يعمل في طريق عجيب ». وكفاف بصـر (متلون) هو الذي جعله ينشـد للنور الأزلي في ديوان شعره الرائع « الفردوس المفقود». ويقول (رست) بأن الصليب كان يعصر الترانيم من قلبي.

فهيا ثق أنه ليس واحد منا يعيش لذاته . فانطرح الآن على الأرض بشـجاعة وقدم نفسـك بسـخاء لتموت ، فان رفضت هذا فانك ستبقى وحدك ، ولكن أن سلمت ذاتك فانك ستحمل ثمرا متكاثرا يقوي الآخرين ويشد أزرهم . ربما أناس لم يعرفوا اســمك ، أو ربما لم يقفوا قليلا ليشــكروك على ما أســديت اليهم من عمل صالح.

منقولة من كتاب أشهر المواعظ للواعظ القدير ف. ب. ماير مع التعديل والتنسيق

الرب يستخدم هذه العظة لمجد اسمه